جامعة تكريت

كلية التربية للعلوم الانسانية

قسم التاريخ

دكتوراه اسلامي

المجابهة الاسلامية للحروب الصليبية

(دور صلاح الدين الايوبي في مصر)

أ.د. حنان عبد الرحمن طه

دور صلاح الدين في مصر

بعد وفاة «شيركوه كان من المتوقع أن يختار الخليفة العاضد، للوزارة أحد رجال الدولة الفاطمية، ولكنه اتخذ خطوة جريئة وعهد بالوزارة إلى صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٦٥هـ / ١١٦٩م، ابن أخي شيركو ظنا منه أنه إذا ولى هذا الشاب القليل الشأن يستطيع أن يمارس سلطته كخليفة؛ لأنه ليس له عسكر ولا رجال). فلما حضر صلاح الدين في قصر الخليفة خلع عليه الوزارة)، ولقب بالملك الناصر ، وعاد إلى دار «أسد الدين» فأقام بها لم يكن منصب الوزارة وقتئذ منصبا يتهافت عليه الطامحون، إذ كان هذا المنصب مليئاً بالمصاعب والأخطار، فقد كان صلاح الدين وزيرا سنيا في دولة شيعية للخليفة «العاضد»، ونائبا لسيده «نور الدين محمود» فى وقت واحد ، مع أن ذلك لم يكن بدءًا أن يتولى أحد السنيين الوزارة للخليفة الفاطمى الشيعي؛ لأنه حدث أن تقلد الوزارة زمن الفاطميين وزراء سنيون من حين لآخر .

وصول حملة صليبية جديدة إلى دمياط لا شك أن نجاح نور الدين محمود في الاستيلاء على مصر بدأ يثير المخاوف عند الصليبيين، ذلك لأن الإمارات الصليبية أصبحت محصورة بين الشمال الشرقي والجنوب الغربي، مما أصاب الفرنج بالخوف والفزع فأيقنوا بالهلاك ، ومن هذا المنطلق فكر عموري» فى أن يقوم بإعداد حملة صليبية لغزو مصر، فأرسل سفرائه إلى ملوك أوروبا يستنجد بهم، ولكن ملوك أوروبا كانوا منصرفين إلى مشاكلهم الخاصة، لكن «عموري» لم بيأس، فاتصل بالإمبراطور البيزنطي مانويل كومنين، إمبراطور الدولة البيزنطية، قلبي «كومنين الاستجابة، وذلك لأنه كان قد أحس بالخطر الذى يهدد دولته من جهة حلب ودمشق، والذى كان ينظر بعين الخوف إلى التوسع النورى فى مصر .

أسرع الإمبراطور البيزنطي بإرسال أسطول بيزنطي بقيادة أندرونيك كونستفانو إلى «عمورى» وتوجهوا جميعا إلى دمياط من الديار المصرية) فلما وصلت الحملة إلى دمياط علم اصلاح الدين فانزعج لذلك، وأدرك أنه لو خرج إلى دمياط للدفاع عنها فقد يثير رجال القصر واتباع

الفاطميين الفتن والاضطرابات وينقضون على بقية جيشه، ويستعيدون دمياط لكن لم يلبث اهل دمياط أن استغلوا ظاهرة جريان النيل من الجنوب إلى الشمال سلطانهم من جديد، وأدرك أنه لو بقى فى القاهرة فقد ينجح الصليبيون في الاستيلاء على وأطلقوا على سطح الماء أواني فخارية بها مواد مشتعلة أنزلت بالأسطول البيزنطي الضرر) هذا بالإضافة إلى مساعدة نور الدين حيث هاجم بعض حصون الصليبيين في الشام لتتحرك الفرنج إلى حفظ البلاد الشامية ويشتغلوا عن دمياط وذلك بإرسال الإمدادات إرسالا يتلو بعضها بعضا) فرحلوا عائدين على أعقابهم ولم يظفروا بشيء منها)، هكذا فشلت الحملة في اقتحام ثغر دمياط، وانسحبت السفن البيزنطية من دمياط في (٥٦٥هـ – ١١٦٩م)، بعد أن عجز بحاروها عن السيطرة عليها والتحكم فيها، فرجعوا إلى بلادهم مهزومين يتملكهم الأسى والحزن فكانوا موضع المثل اخرجت النعامة تطلب قرنين رجعت بلا أذنين ، وأعلن الخليفة الفاطمى العاضد» سروره لنجاح «صلاح الدين، في صد الصليبيين فأغدق عليه المال والسلاح، كما أبدى المصريون سرورهم). هكذا يعتبر فشل الحملة المشتركة على دمياط نقطة تحول مهمة فى تاريخ الشرق الأدنى. وانتهزها صلاح الدين فرصة وبدأ خطة الهجوم ضد الصليبيين، فأغار على الرملة وعسقلان وهاجم داروم دارون) (١) وغزة فى عام (٥٦٦هـ / ١١٧٠م)، ثم عاد إلى القاهرة غير أن نور الدين لم يكترث لما فعله صلاح الدين؛ لأن اهتمامه كان منصبا على إسقاط الخلافة الفاطمية وإعلان الخلافة العباسية فى مصر" .

موقف صلاح الدين مع الصليبيين

نشأ صلاح الدين الأيوبى فى بلاد الشام التى كانت بمنزلة الميدان الأول للصراع بين المسلمين والصليبيين، حيث نشأ فى عصر كان الجهاد هو الهدف الأول فيه عند الأمراء، الذي بدأه شرف الدولة مودود» ثم نجم الدين إيلغازي»، ومن بعده «عماد الدين زنكي، ثم نور الدين محمود» الذي تولى راية الجهاد من بعده، فعمل على توحيد الجهود وإقامة وحدة إسلامية تضم البلدان العربية التى تتعرض باستمرار للخطر الصليبي وهى مصر والشام والعراق، فمن

الطبيعي أن يتشرب صلاح الدين روح الجهاد، ليس هذا فقط بل أصر إصرارًا شديدًا على تنفيذها حتى آخر لحظة فى حياته، وأول ما يثير الانتباه في حروب اصلاح الدين، وجهاده ضد الصليبيين هو أنها سرت بمرحلتين.

المرحلة الاولى : التي امتدت من سنة ٥٧٠هـ / ١١٧٤م – ٥٨٢هـ / ١١٨٦م، وهو الدور الذي لم يغفل فيه اصلاح الدين، أمر قتال الصليبيين مطلقا على الرغم من أنه لم يقم حتى ذلك الوقت بحرب سمة لفتح بلادهم ، كان صلاح الدين قد اشتبك مع الصليبيين في هذه المرحلة في عدة غارات قبل أن تكتمل استعداداته البحرية والعسكرية، فقد هاجمهم عند الكرك والشوبك ، ووصل إلى عسقلان ٥٧٣هـ / ١١٧٧م ، وأغار عليها ومنها سار إلى الرملة ثم إلى مرج عيون، وانتصر على الفرنج عام ٥٧٥هـ / ١١٧٩م ، وفى عام ٥٧٤هـ/ ١١٧٨م اشتبك صلاح الدين»

عند مخاضة الأحزان بيت الأحزان هزيمة نكراء على أساسها اضطر ملك بيت المقدس بلدوين الرابع لعقد هدنة مع صلاح الدين سنة ٥٧٦هـ/ ١١٨٠م) لمدة عامين.

المرحلة الثانية شده يعود من به نوبه الرنه فهي تمتد من ٥٨٢هـ / ١١٨٦م – ٥٨٨هـ / ١١٩٢م، وتعتبر هذه المرحلة هي أهم المراحل في حياة اصلاح الدين، ففيها تحول من سياسة الدفاع إلى سياسة الهجوم، والدخول مع الصليبيين في معارك حاسمة خلدت ذكرى «صلاح الدين».

صلاح الدين والجهاد ضد الصليبيين

نجح صلاح الدين فى إقامة إمبراطورية واسعة الأرجاء مرهوبة الجانب، تمتد من بلاد النوبة واليمن جنوبا إلى بلاد أرمينية شمالاً، ومن برقة غربا إلى الموصل وبلاد الجزيرة شرقا، وورث أيضًا أملاك الدولة الفاطمية فى مصر والدولة الأتابكية في بلاد الشام، وأصبح قائدا، بل زعيما لجبهة إسلامية متحدة القوى أمام القوى الصليبية المتنافرة في بلاد الشام. ونحن قد بينا أن

صلاح الدين عقد هدنة مع ملك بيت المقدس بلدوين الرابع، سنة ٥٧٨هـ / ١١٨٠م وبعد وفاته (تولى الوصاية على بلدوين الخامس، ملك بيت المقدس ريموند الثالث صاحب طرابلس

اضطر ريموند الثالث» إلى تجديد الهدنة بينه وبين صلاح الدين) لمدة أربع سنوات) (٥٧٩هـ/ ١١٨٤م – ٥٨٣هـ / ١١٨٨م، لكن فى هذه الفترة برز رجل من الفرنج يسمى أرناط ريجنالد دى شاتيون صاحب حصن الكرك والشوبك، وعرف عن أرناط .

(موقعة حطين الكبرى (٥٨٣هـ – ١١٨٧م

لا شك أن الخطوة المنطقية التي يجب أن يتبعها صلاح الدين هي القيام بهجوم إسلامي شامل على مملكة بيت المقدس التابعة للصليبيين، خاصة بعد الأعمال العنيفة التي فعلها أرباط صاحب حصن الكرك الذى يشرف على طريق التجارة والحج بين مصر والشام والحجاز، هذا هو ما ذكره المؤرخون عن دوافع هذا الهجوم على الصليبيين وإن كان من المعروف أن حادثة «أرناطه لا تعدو أن تكون السبب المباشر فقط، وأن صلاح الدين، لم يقم بهذا العمل الهجومي .إلا بعد أن استكمل استعداداته الحربية والبحرية كما رأينا

أعلن صلاح الدين حركة الجهاد وتزعمها ضد الصليبيين فرأى أن يتجنب تجمعات الصليبيين بالساحل فى صفورية قرب عكا، وهاجم الصليبيين بالقرب صفورية وانتصر عليهم) ولم يمض وقت قليل حتى تمكن من الاستيلاء على طبرية حتى يجبر الصليبيين على الخروج من صفورية مركز تجمعهم، واستولى على طبرية ٥٨٣ في ١١٨٧م، غير أن أمراء الصليبيين اجتمعوا في عكا وقرروا الزحف من صفورية إلى خيرية، وفرح صلاح الدين، عندما تحرك الصليبيون إلى طبرية، ثم عسكر غربي طبرية وبالتحديد عند قرون حطين الغنية بالمراعي والماء حتى ينعم هو وجنوده بالظل والماء الوفير عند بحيرة طبرية والأردن، بينما كان على الصليبيين أن يسلكوا بدروعهم الحديدية الثقيلة طريقا وهرًا لا ماء فيه في وقت اشتدت فيه حرارة الشمس في شهر يوليو، ووصلوا منهكين متعبين عند تل حطين وطلعوا إلى تل حطين والنار

تضرم حولهم فهلكوا وتساقطوا من التل، وانتهز صلاح الدين الفرصة عندما حل ظلام الليل وأحاط بالجيش الصليبي ثم دار القتال بين الفريقين، وانتصر المسلمون انتصارا عظيم بعد أن كبدوا الصليبيين خسائر فادحة في الأرواح، والمعدات، وأسر المسلمون الملك حاى لوزجنان»، والبرنس أرناط» صاحب الكرك) ولم ينج إلا القومص ريموند» كونت طرابلس الذي هرب إلى مدينة صور ، وبعد أن رأى صلاح الدين الأسرى قتل «أرناط» بيده ؛ لأنه كان قد أقسم على قتله لمحاولته الاعتداء على المدينة المنورة وقبر الرسول . كانت واقعة حطين كارثة عظيمة على الصليبيين؛ لأنهم خسروا فيها خسائر فادحة منها زهرة شبابهم وفرسانهم وعلق المؤرخ ابن الأثير على هذه الواقعة يقوله وكان من يرى لقتل يحسب أن ليس هناك أسرى، ومن يرى الأسرى يحسب أن ليس هناك قتلى، بعد ذلك اتجه صلاح الدين إلى الاستيلاء على المدن الساحلية التي تربط الصليبيين بموطنهم في غرب أوروبا، فيحصرهم في داخل الشام، فضلاً عن أن احتلاله للمدن الساحلية سوف يسهل عليه الاتصال البحرى السريع بين شطري دولته في مصر والشام .

استولى صلاح الدين على عكا ويافار وصيدا وبيروت وجبل، وحيفا وعسقلان وغزة، ولم تستعص عليه سوى مدينة صور الحصينة المنيعة في أسوارها وأبراجها، بعد ذلك رأى صلاح الدين أن يتجه إلى الداخل نحو مدينة بيت المقدس، فعرض على أهلها تسليم المدينة على أن يؤمنهم على أرواحهم ونسائهم وأولادهم، ولكن أهل بيت المقدس رفضوا ذلك العرض)، فأقسم صلاح الدين على أن يفتح بيت المقدس بحد السيف) وتطهير أولى القبلتين وثالث الحرمين ومسرى رسول الله من الوجود الصليبي، فتقدمت جموع المسلمين للتطوع والجهاد من أجل طرد الصليبيين، وتزعم حركة المقاومة ضد الصليبيين " وباليان بن بيرزان) صاحب الرملة وبعد حصار مدينة القدس (بيت المقدس) وشدة بأس المسلمين، اتفق الصليبيون على إرسال جماعة من أمرائهم وأعيانهم في طلب الأمان وتسليم القدس بشرط احترام من بالمدينة من الصليبيين والسماح لمن يشاء بمغادرتها، وفى ذلك يقول العماد الأصفهاني: «طار الخبر إلى القدس،

فطارت قلوب من بها رعبا وطاقت وحققت أفئدتهم خوفًا من جيش الإسلام وجاشت، وثمنت الفرنج لما شاعت الأخبار أنها ما عاشت... وضاقت بالقوم منازهم فكأن كل دار منها شرك للمشرك وقاموا بالتدبير فى مقام الإدبار، وتقسيت أفكار الكفار ، وأبس الفرنج من الفرج وأجمعوا على بذل المهج ، وكانت هذه الشروط نفسها هي التي سبق أن عرضها صلاح الدين، على أهل بيت المقدس، ورفضوها ، هكذا دخل صلاح الدين مدينة بيت المقدس" في ليلة الإسراء ر ٢٢ رجب سنة (٥٨٣هـ / ١١٨٧م)، واستولى عليها استيلاء كاملا) ، وكانت معاملته للأسرى الفرنج معاملة يملؤها التسامح والكرم. بعد ذلك الجه صلاح الدين، بعد فتح القدس إلى فتح الحصون الباقية، فاستولى على الشوبك والكرك وقلعة كوكب والشقيف وصهيون ثم سقطت عقلان وعكا وصفد وطرطوس وجبلة واللاذقية، ولم يبق في يد الفرنج سوى صور وهي المدينة الوحيدة الباقية من مملكة بيت المقدس الصليبية وطرابلس التي لم يبق منها سوى عاصمتها طرابلس وقلعة أنطرسوس وحصن الأكراد وبعض المراكز الأخرى الثانوية وأنطاكية التي لم يبق من المناطق التابعة لهما سوى عاصمتها وميناء السويدية وحصن المرقب..